للكِ الله يا سوريا

الجزء الثاني: مهرجان الوحشية

وحشية البشر تتعزز أسبابها لديّ بتراكم أخبارها منذ غزو الكويت إلى حرب سوريا مروراً بحروب البوسنة والهيرسك وكوسوفو مع الصرب، واحتلال العراق من قِبل أمريكا وما فعله جنودها في أبو غريب وغيره.. أما شرارتها الأولى فجاءت عندما سمعت قصصاً مخيفة، معاصرة - بعضها حدث لأناس أعرفهم معرفة شخصية- حيث وصلتُ لقناعةٍ بأن هناك خيطاً دقيقاً يصل الإنسان بآدميته ويفصل بينه وبين الجزء الوحشي فيه، ومتى ما سَمح ليده أن تمتد بشيءٍ من البغي إلى خلق الله إن أمن المحاسبة البشرية، فسرعان ما ينقطع به هذا الخيط فيسقط في عالمٍ آخر.. عالمٍ من الظلام.. عالمٍ تلمع فيه عيون الوحوش وهي تلعق مخالبها الدامية..

في هذا العالم المظلم يقضي الإنسان إجازةً من الضمير ومن الأخلاق الحميدة، ومن كل تعاليم السماء ليمارس طقوساً شيطانية..

ولا عجب، فعندما يكون انضباط الإنسان ليس بدافعٍ ذاتيّ مردّه تقوى الله وإنما بدافع القانون الوضعي ومخافة البشر، يسهل خروجه إلى عالم الوحشية متى أذن له البشر بالتحلل من هذا الإنضباط، وذلك يكون عادةً في زمن العنف والحروب، حيث يكون الإنسان -عند غلبته- بسلاحه وقوته واطمئنانه أنْ قد أُطلقت يداه، وأنه لن يعاقب على ما سيفعله من قِبل رؤسائه..

عندما تمتد هذه اليد التي لا تخشى الله بقتلٍ غير مبرر شرعاً أو بتعذيبٍ لإنسانٍ آخر تعلم أنْ قد رُفعت عنه الحصانة البشرية، فلا بد أن تستوحش.. لا بد أن ينقطع ذلك الخيط الدقيق الذي يفصل بين صاحبها وبين العالم الظلامي..

من كان ليفكر وهو في حالته الإنسانية غير المتوحشة في تقطيع رجلٍ ونشر لحمه على حبل الغسيل أمام زوجته وأهل بيته، ومن كان ليفكر في أن يُضجع إنساناً على جزء من جدار سميك ثم يكمل بناءه بغية إيلامه بسحقه حتى الموت تحت وطأة الطابوق والإسمنت؟ لقد حدث ذلك في إحدى الحروب من بين أنواعٍ أخرى من القتل والتعذيب والإغتصاب. ومن أكثر الصور إيلاماً تلك التي رأيتها فلم أستوعب ما أرى بسهولة، وهي لشاحنةٍ ملأى بجثثٍ عاريةٍ اصطفت فوق بعضها بعضاً لأبناء كوسوفو بما يجعل العقل حقاً لا يستوعب ما يرى. ولا أذكر كل هذه القصص لفتح جروحٍ قديمةٍ اندملت، وإنما لدورها في تكوين هذه الفكرة لديّ عن أسباب توحش البشر..

ثم إذا ما ظننا أن تلك كانت أقصى حدود الوحشية التي ولّت فسيطل علينا مهرجان الوحشية الذي يتخذ من سوريا العزيزة مسرحاً منذ ما يقرب من الثلاثة أعوام، حيث امتدت الأيادي المستوحشة حتى إلى الأطفال لتغتصبهم وتسلخ رؤوسهم أمام والديهم، ثم إذا بهذه الوحشنة تجعل يد الإنسان تمتد لتقطع رؤوساً لا مبرر لقطعها على الإطلاق ما دام الرصاص قد قتل أصحابها.. و أخرى تمتد لإبادة المئات من سكان القرى الآمنة طعناً بالسكاكين ورمياً بالرصاص. ثم تتمادى الوحشية لتجعل يداً تمتد لتقتلع أحشاء الآخر ليأكل صاحبها من قلبه أو رئته كما قرأت وسمعت..

والغريب في الأمر أنه وقف يصلي بعدها بأيامٍ أمام الكاميرا وكأن أكل لحوم البشر شيءٌ معتادٌ يرتضيه الإسلام، وأعتقد أنه لو كان في قلبه ما يكفي من الاحترام لدينه لتورّع عن فعل ذلك تجنباً للوقوع في الحرام.. كما تورع أهل حمص المحاصرون عن أكل القطط قبل أن يستفتوا بخصوصها عندما جُوِّعوا حتى لم يبق أمامهم ما يؤكل غيرها..

وما هذه إلا وحشية أخرى من وحشيات المهرجان التي لا تحصى؛ أن يُجَوّع الناسُ حتى يموت بعض صغارهم ومرضاهم وشيوخهم، ويضطر من بقي منهم إلى الاستفتاء في أكل القطط..

أفي هذا الزمن الذي نزعم فيه أننا متحضرون؟

وثمة وحشية أخرى لا بد أن تذكر في هذا السياق هي وحشية هذا العالم الذي يسمع ويرى ويفضل أن يظل متخارساً، ولا يبدو أنه سيحرك ساكناً لو تحول سكان بلدٍ مؤمنٍ مسالمٍ مثل سوريا إلى وحوشٍ وأكلة لحوم قطط وكلاب.. وبشر..

ربنا قنا شر التوحّش، ربنا حصنّا بتقواك، ربنا اهدِ إخواننا من جميع الأطراف وألهمهم تقواك، ربنا ارحم عبادك المستضعفين من توحّش المستكبرين، ربنا ارحم هذه الأمة ولا تُحوِجها لغيرك، ربنا ارحم أهل سوريا وتكفّل بهم كما وعدت على رسولك الكريم، ربنا ارفع عنا غضبك وألهمنا تقواك..

رحماك ربنا.. رحماك.. رحماك..

وسام خليفة